الإمكانيات ومحدودية النص المنقبي في الكتابة التاريخية: مناقب أبي اسحاق الجبنياني نموذجا

د. محمد سعيد، جامعة سوسة

تعد الكتابة المنقبية جنسا متفردا برغم اختزاله لأنماط أخرى متداولة سبقته مثل كتابة السيرة والتراجم أو الطبقات التي تعرف بجملة من العلماء والشخصيات التي سجلتها الذاكرة الإفريقية. كيف يمكن للكتابة المنقبية أن تمثل مادة تاريخية لمن يشتغل ضمن هذا الحقل المعرفي؟ إن كان ذلك ممكنا، فما هي تلك الإمكانات التي قد يوفرها هذا النص لصالح عمل المؤرخ؟ وما هي حدود تلك الإمكانات؟ علما وأن النص المنقبي بحكم طبيعته يتسم بالذاتية أكثر من الموضوعية. فكيف يتصرف المؤرخ حيال هذا الوضع؟ أم أن الذاتي ضروري لفهم الموضوعي؟ كل هذه الإشكالات سنحاول التطرق إليها من خلال عينة ملموسة تتمثل في مناقب أبي إسحاق الجبنياني وهو النص الذي ألفه اللبيدي.

سنحاول من خلال هذه الورقة أن نتعامل مع النص المنقبي كوثيقة من بين الوثائق التي قد تفيد في كتابة التاريخ الذهني خاصة بحكم خصوصيتها.إن المناقب تختلف عن السير والتراجم العادية، فهي لا تؤرخ لشخصيات عادية فحسب بل إنها تكرس مقاربة الذات الجمعية لصنف من الأشخاص الغير الطبيعيين في نظر الجماعة. إنهم الأولياء والعباد والمتصوفة. في هذا الإطار يتنزل

النص المنقبي الذي يخبر عن الولي بعين المؤلف كما تتمثله الجماعة: قدوة ونموذجا. رجل ينخرط في نطاق المقدس عبر قربه من الله، فالولي هو القريب من الله. والولي يختزل في نفس الوقت شخصية الأنبياء والأبطال الشعبيين وكل الخالدين في ذاكرة الجماعة من شهداء وصديقين.فالنص الحالي يخبر عن ولي من وجهة نظر ثابتة ن من حيث كونه قد رسم ملامحه العامة، كما يخبر أيضا من وجهة نظر تطورية «دياكرونية» (Diachronique) من خلال وضع الرجل في محيطه التاريخي.

وهذا الإطار، أي الظرف التاريخي، يساعد كثيرا في فهم نشأة صورة الولي في ذاكرة الجماعة خلال فترة متقلبة من تاريخ إفريقية. ولعل هذا الظرف المتقلب يفسر إلى حد بعيد الكيفية التي صيغت من خلالها صورة الولي مثلما وردت في المصادر المنقبية التي تأسست كشكل مستقل عن سائر أجناس الكتابات التي تؤرخ لأشخاص كما ذكرنا، لتصبح بذلك دالة على مدلول جديد هو الولي الإفريقي الذي يستمد شرعيته من مقاومة البدع، من وجهة النظر المالكية. وهنا نشير إلى العقلية السائدة التي ينطلق من المؤلف ليعبر عن حضور الولي في الذاكرة الجمعية. وهذا يحيلنا على التجارب المسيحية التي يتأهل فيه الشهداء المدافعون عن عقيدتهم إلى مرتبة القديسين وهو تأهيل يحظى بمباركة واعتراف رسميين من طرف الكنيسة.

لكن استعمال النص المنقبي يتطلب من الباحث ملازمة الحذر الشديد ليفرق بين الذاتي والموضوعي، بين الواقع التاريخي وبين المعطى الميتا-تارخي الذي يتضمنه النص المنقبي المعبر عن ذات شعبية جمعية تتوق إلى المطلقات وتنفر من النسبي، من المؤارخة والتحقيب اللذان هما أساس

عمل المؤرخ. والنص المنقبي يظل برغم أهميته محدودا، فهو مفيد من حيث التاريخ الذهني والشخصيات التي يعرف بها لكن قد نطلب منه أكثر من ذلك، لأن مؤلف المناقب لا يكتب التاريخ ولا يهتم بالوقائع بقدر ما يهتم بتشييد الشخصية النموذج.

قراءة نص منقبي

نود أن نقدم محاولة لقراءة نص منقبي نعتبره نصا تأسيسيا نظرا لريادته ضمن النصوص التي لها صلة بهذا المجال وهو النص المتعلق بمناقب أبي إسحاق الجبنياني. ونشير إلى أن مبررات اختيارنا لهذا النص دون سواه يمكن أن تكون كالآتي:

– أولا إن النص يعتبر أقدم نص منقبي إفريقي برغم وجود نصوص مشابهة متعقلة بشخصيات أخرى تعود إلى نفس الفترة وقد دونت تقريبا في نفس الفترة التي كتب فيها نص مناقب الجبنياني لكن النصوص لم تصل إلينا إلا إشارت حولها ([1]).

– النص الذي بين أيدينا يعرفنا بنموذج للعابد الإفريقي لتلك المرحلة من القرن الرابع للهجرة في سابقة ستكون تقليدا ينسج على منواله بقية المؤلفين ([2]) لاحقا.

– صاحب المناقب [أبو إسحاق] لا ينتمي إلى أهل القيروان الذين كان لهم شأن في التأثير على الظاهرة بل ينتمي إلى المنطقة الساحلية التي تميزت بنزعة المرابطة في إطار الولاية.

[1] نشير هنا إلى تآليف الأجدابي.

[2] – نذكر هنا **مناقب محرز بن خلف** الذي ألفها أبو طاهر الفارسي ت[440 أو 450هـ/ 1048–1058م] في نفس الفترة تقريبا.

المتن

اعتمدنا النسخة المطبوعة التي أصدرها هادي روجي إدريس. وقد ضم النص الذي بين أيدينا حوالي سبعين صفحة، بينما ترد نفس المواد تقريبا في كتاب مقديش في أقل من ذلك ([3]).

المؤلف :

هو أبو القاسم عبد الرحمان بن محمد الحضرمي اللبيدي، هو من تلامذة أبي الحسن القابسي الذي وجهه إلى أهل المهدية ليفقههم. وكان من الذين يعتقدون في كرامات الأولياء والصالحين، كثير الزيارة لهم بالساحل يبحث عن مناقبهم وأحوالهم، وقد توفي في حدود سنة **440هـ/ 1048م** ([4]). نلاحظ من خلال ترجمته أن المؤلف يتميز بمستوى علمي مرموق وهو ما سيكون له تأثير على أسلوب المناقب الذي يختلف عن المناقب التي تعود إلى الفترات المتأخرة التي تسيطر عليها لغة بسيطة تتضمن بعض مفردات عامية تتخللها أخطاء.

1-منهج الكتابة المتبع في النص المنقبي

لقد خضع النص إلى نفس المنهج الذي تخضع إليه كتب الأخبار وكتب السير والتراجم والتي تستعمل الإسناد. وبخصوص الإسناد نذكر أن المؤلف قد نبه إلى الطريقة التي سوف يتبعها في تأليفه وهو اعتماده على أخبار منقولة نسبت إلى مصادرها وهناك أخبار يرويها

[3] - محمود مقديش، **نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار**،ج2، ص 248- 268.

[4] - الدباغ، **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**، ج3،ص 175، محمود مقديش، **ن/ م**، ص 271- 272،

المؤلف من خلال مشاهداته الخاصة ([5]). ومهما يكن من أمر فقد يجوز أن يكون المؤلف قد أدرك الشيخ وهو طاعن في السن ([6]). بينما كان هو في مقتبل العمر. إذا تنقسم المواد التي وردت في المناقب إلى نوعين من السند، سند مباشر وسند غير مباشر. بخصوص السند المباشر اعتمد المؤلف على مشاهداته الخاصة وقد عبر عن ذلك في أكثر من مناسبة، فيقول مثلا وحضرت أبا إسحاق، أو رأيت أبا إسحاق، أو كنت بين يدي أبي إسحاق، ثم يورد الخبر. أو أن يقول سمعت أبا إسحاق يقول. وهذه الشهادات كان لها نصيب الأسد في المواد التي تتكون منها المناقب. وبخصوص النوع الثاني من السند فقد تكون من أخبار استقاها اللبيدي من مصادر معرفة أو مصادر نكرة، فيقول بهذا الشأن : عرفني شيخ معمر، أو حكى لي شيخ، أو عرفني شيخ من أهل القيروان. وعلاوة على هذا النوع من المصادر الغير المباشرة فقد وردت إشارات عدة إلى السند الذي استقى منه الخبر فيعرفه باسمه أو بصفته. وهنا نشير إلى أن المؤلف قد اعتمد في جمع مادته المنقبية على مصادر تنتمي إلى محيط الشيخ بالأساس ومن أبنائه بدرجة أولى، على غرار ما ورد سياق التعريف بنسبه «**أما نسبه فعرفني ولده أبو الطاهر**» ([7]).

[5] – هذا الأمر يطرح إشكالا لاسيما وأن مابين تاريخ وفاة كل من الشخصين تقارب السبعين عاما، حيث توفي أبو إسحاق في حدود 396هـ، وتوفي اللبيدي في 440هـ .

[6] – يصرح اللبيدي أن الشيخ توفي عن سن التسعين، **المناقب**، ص 69.

[7] – اللبيدي، **ن/ م**، ص 2.

كما اعتمد المؤلف على ولده أحمد فيقول «**وعرّفني ولده أحمد**» ([8]). كما اعتمد على ولده إبراهيم* ([9]). كما اعتمد اللبيدي على بعض جيران الشيخ : «**وحدث عيشون بن زيد جار الشيخ**» ([10]). واعتمد اللبيدي على أصحاب الشيخ الذين ذكرهم إما بأسمائهم أو أنه أشار إلى علاقتهم به فيقول مثلا : «**وعرفني عيسى بن ثابت، وكان من خيار أصحابه**» ([11]).

وقد أحصينا قرابة ثمانية وعشرين سندا اعتمدهم اللبيدي في جمع المواد المنقبية التي تضممنها النص عدا أبناء الشيخ ومشاهدات المؤلف. وموضوع السند هذا يحيل إلى مسألة الكتابة المنقبية واعتمادها على الطرق المتبعة في أنواع أخرى من الكتابات، وهنا نذكر بالسيرة النبوية التي تعتبر النموذج المثالي الذي يسير عليه كتاب المناقب، حيث يكون السند عنصرا مهما في بناء النص المنقبي كما هو الشأن عند مؤلفي السيرة وجامعي الحديث، وهنا يكمن التواصل بين الأشكال التقليدية للكتابة مع النوع الجديد الذي لا يختلف إلا من حيث المضمون والأهداف، وحتى هذه النقطة تعتبر عنصرا منسجما مع ظاهرة التواصل والتماهي مع التجربة النبوية

[8] – اللبيدي، **ن/ م**، ص 19.

*هذا الإسم يطرح إشكالا حيث لم يذكره المؤلف ضمن أبناء الشيخ بصفحة 21، فهل يكون فعلا أحد أبنائه؟ كما أن الشيخ ذاته يسمى ابراهيم؟

[9] – اللبيدي، **ن/ م**، ص 44.

[10] – اللبيدي، **ن/ م**، ص 42.

[11] اللبيدي، **ن/ م**، ص 41.

وهو المبدأ الذي اعتمدناه في مقاربتنا للظاهرة ككل. فلماذا لا تعتبر الكتابة المنقبية متنزلة في هذا الإطار؟

ففي حالة نصنا يكون الخبر غير خاضع للمبادئ المعتمدة في كتابة الأحاديث من جرح وتعديل، وهو المنهج الذي سلكه الإخباريون في جمع الأخبار وكذلك مؤلفو السيرة ([12]). هنا يكون الخبر ذا صلة بالكاتب الذي يعتبر هنا شاهد عيان في أكثر الحالات التي أوردها، وفي الحالات الأخرى يكون المصدر غير بعيد عن الشخص المعرف به، جاره أو صاحبه أو أحد أفراد عائلته، وهنا تكمن قيمة هذا النص الذي لم يتعرض الخبر فيه لمفعول الزمن والتقادم وهو ما سيؤثر على المضمون العام للنص كما سنبينه في حينه. وقد تطرح أمامنا مشكلة أخرى تتعلق هذه المرة بالهدف من وراء كتابة المناقب وهو ما سنحاول البحث فيه.

2-دوافع تأليف النص المنقبي

سوف لن نذهب بعيدا في التأويل قبل أن نذكر بمقولة الكاتب ذاته الذي عبر من خلالها عن الهدف الكامن وراء إقدامه على تأليف المناقب. فقد أشار إلى أن الهدف كان استجابة لرغبة الأصدقاء الذي طلبوا منه أن يكتب لهم ما يعرف من مناقب حول الشيخ الجبنياني ([13]). إذا علمنا

[12] –H. Touati, «Les modèles d'écriture des manakib », *Histoire et linguistique*, 1992, p. 60-61.

[13] – يقول اللبيدي في هذه المسألة : وقد سألني سائلون أن أؤلف لهم ما انتهى إلي من مناقب الشيخ الجليل الصالح أبي اسحاق ابراهيم بن أحمد بن علي بن أسلم الجبنياني، رضي الله عنه، في حفظه وعلمه، وسيرته في نسكه وزهده، وانقطاعه في العبادة، وانفراده بما عجز عنه أهل عصره ، **مناقب أبي اسحاق،** ص 2.

أن المؤلف كما تقدم القول، كان من المولعين بأخبار العُبّاد والصُّلحاء فقد يكون أكفأ من غيره بهذه المهمة.

لكن ما يلفت الانتباه هنا هي ظاهرة الاستجابة لرغبة الجماعة في تأليف أخبار العباد والنساك والتي لم تكن خاصة باللبيدي فقط، إذ عبّر المالكي صاحب رياض النفوس عن هذه الرغبة في تصديره للكتاب ([14]) كما أشرنا إلى ذلك آنفا.

ونفس التوجه نجده لدى أبي طاهر الفارسي مؤلف مناقب محرز بن خلف: «**وبعد، فإنكم سألتموني رحمكم الله تعالى وأرشدكم، أن أجمع لكم ما وقع لي من أخبار المؤدب محرز بن خلف، رحمه الله تعالى ورضي عنه، ومناقبه**» ([15]). فهل يعني أن التأليف المنقبي صار مطلبا جماعيا يستجيب له المؤلف الراغب في مرضاة القوم، أم أن الأمر لا يتعدى مسألة شكليات؟ هنا تتداخل الأبعاد الذاتية والموضوعية حيث يكون المؤلف مؤهلا للكتابة في نفس الوقت يرضي حاجة في نفسه باعتباره من الذين لهم شغف بجمع الأخبار والمناقب حول الشخصية والحالة هنا شخصية أبي اسحاق .حيث ذكر اللبيدي أن تأليف المناقب حياة للقلوب وانزعاج عن الذنوب ([16]).

من ناحية أخرى يهدف التعريف بشخصية الولي الصالح إلى خلق القدوة وهنا يعبر المؤلف عن هذه النزعة: «**وتمسكنا بهدي**

[14] – المالكي، **رياض النفوس**، ج1، ص 4.
[15] – أبو طاهر الفارسي، **مناقب محرز بن خلف**، ص 90.
[16] –اللبيدي، **مناقب الجبنياني**، ص 2.

السلف الصالح من أئمة دينه الذين قاموا لله بحقه، وبذلوا النصيحة لعباده، لا يمضي منهم سلف، إلا أتى بعدهم خلف، مرورهم عبرة، ومخالطتهم نعمة، والإقتداء بهم عصمة» ([17]).

يستفاد من هذا القول أن حاجة قد نشأت لدى الجماعة لتأهيل هذه الشخصيات الولائية إلى درجة القدوة وهو أمر مطلوب ومرغوب فيه، فلذلك استجاب المؤلف لهذه الرغبة الجماعية وجمع بين ترضية ذاتية وأخرى موضوعية. وهنا ندرك أبعاد هذه الكتابة التي تبحث من خلاله الجماعة عن توازن ([18]) يمثله الولي الذي يشكل القدوة والعبرة وبذلك تكون للكتابة وظيفة تربوية أخلاقية([19]) تجعل من الجماعة تتماهى في ذات الولي الصالح المتمثل بدوره للتجربة النبوية والممثل لها ولو بشكل لا واعي. ونمر إلى الحديث عن طبيعة المواد التي تضمنها النص المنقبي.

3-طبيعة المواد المنقبية

لقد كانت المواد الواردة في النص ذات صلة بشخصية الولي التي تعتبر هنا شخصية محورية تتحرك في محيط معين وفي زمن معين. وبخصوص الشخصيات التي ورد ذكرها في نصنا هذا يمكن أن تصنف إلى نوعين : النوع الأول يتعلق بشخصيات قريبة من الولي، أصدقاؤه وأفراد عائلته،

[17] – اللبيدي، **ن/ م**، ص 1.

[18] –H.Farhat et H.Triki, Hagiographie et religion au Maroc médiévale, *H.T.opcit*, p. 17.

[19] –P.TH.Urvoy; «Le genre manakib comme auto analyse collective » *ARABICA*.T37, nov 1991, p. 305- 325.

بينما ورد ذكر شخصيات معادية وهي تمثل رموز السلطة وأتباع المذهب الفاطمي وحتى أتباع المعتزلة الذين يصنفون ضمن أهل البدع.

وهذا التصنيف يجعلنا نقر بوجود عالمين متناقضين، عالم سني يخص الولي والشخصيات القريبة منه من أصحاب وأفراد العائلة، وعالم غير سني تمثله شخصيات شيعية، لها علاقة بالمذهب أو بالسلطة التي يمثل هذا المذهب توجهها الرسمي، أضف إلى ذلك المعتزلة. من هنا نتبين أهمية النص المنقبي في دراسة الذهنيات،وفي دراسة الحياة الثقافية والعلاقة بين المذاهب في تلك الفترة. بخصوص الأحداث التاريخية لم يتضمن النص سوى إشارة عابرة عن ثورة أبي يزيد صاحب الحمار ([20]).

من ناحية أخرى لا يتضمن النص مواد يمكن أن تعد ضمن الخوارق أو العجائب، إلا لماما قليلا. فقد وردت الأخبار في قالب عادي معتدل يبرز من خلالها الشيخ مدافعا عن السنة رافضا لكل التجاوزات، فقد عارض موقف بعض المتصوفة الذين كانوا يلبسون الصوف ولم يكونوا يحسنون الصلاة فقام بتعليمهم هذه الفريضة ([21]). وعارض أحد الذين زعموا أنهم رأوا النبي في المنام وأخذوا عنه الحديث ،فقال له: «**روايات السنن لا تؤخذ في المنامات، نحن إذا بلغنا أن رجلا ببلد هو أقرب إلى النبي صلى الله عليه وسلم،**

[20] – اللبيدي، **مناقب الجبنياني**، ص 68.

[21] – اللبيدي، **ن/م**، ص68

بدرجة،ضربنا إليه آباط الإبل، وقطعنا إليه المفاوز، وأنت تقول: حدثني سلام الغلام عن النبي» ([22]).

ويبدو أبو إسحاق مدافعا عن السنة ضد «البدع» التي تسربت إلى العامة آنذاك، من ذلك ما ذكره المؤلف عن رجل جلب معه حُصيّات من المسجد الحرام وأراد أن يُهدي الشيخ بعضا منها، فقال له: »**يا أحمق ارمِ بهن، فعلى أقل من هذا عُبدت الحجارة**» ([23]).

وفي نفس الإطار نراه يقوم بهدم عين ماء افتتنت به العامة: «**يأتونها من الآفاق. من تعذر عليها نكاح أو ولد، قالت امضوا بنا إلى عين العافية**»([24]). ولم ترد أخبار ذات صلة بالغيبيات أو بالجانب الخوارقي على غرار ما نجده في مناقب الفترة الأخيرة أو حتى عند المالكي. ولكن ورد عن الشيخ أنه يلتقي بالخضر، حتى لكأن الذات الولائية لا تكتمل صورتها بدون حضور هذه الشخصية ،حيث يكون الخضر من مكلملات شخصية الولي كمام ورد في أكثر من حالة. وفي هذا الإطار حدثت زوجة أبي إسحاق أنه كان يجتمع بالخضر ([25]). وورد ذكر خبر آخر له صلة بكرامة الشيخ وهو شفاء امرأة ملدوغة ، فقرأ عليها أم القرآن والمعوذتين ([26]).

[22] – اللبيدي، **ن/ م**، ص 58.
[23] – اللبيدي، **ن/ م**، ص 24.
[24] – اللبيدي، **ن/ م**، ص 54.
[25] – اللبيدي، **ن/ م**، ص 64.
[26] – اللبيدي، **ن/ م**، ص 56.

كما نلاحظ أن نصنا لا يتضمن مواد ذات نزعة خرافية أو أسطورية كما قيل، بل هناك تشديد على «التسنن» الذي يدافع عليه الشيخ ضد المعادين. وهنا نحاول أن نتعرف على العالم الذي يحيط بالولي كما يبرز من خلال المناقب. وسوف نبدأ بالشخصيات التي وردت في المناقب.

4 – الشخصيات التي تحيط بالولي

مثلما تمت الإشارة أعلاه يوجد نوعان من الشخصيات نوع معادي وآخر قريب من الولي، وهو كما قيل يضم أفراد أسرته وأصحابه والمقربين منه.

أ– الشخصيات القريبة من الولي

وهي قسمان قسم يضم أفراد العائلة والقسم الآخر أصحابه المقربين.

– أفراد عائلة الشيخ :

تضمن النص إشارات عن أفراد عائلة الشيخ وهم أولاده وزوجته وأخته. بخصوص أولاده يذكر المؤلف أنه كان للشيخ سبعة أبناء كلهم صُلحاء عباد، وهو على التوالي :

– أبو بكر، أبو الطاهر، أحمد، أبو عبد الله، أبو الحسن علي، وأبو زيد عبد الرحمان، وأبو محمد عبد الله، وقد مات أبو الحسن علي قبل أن يحتلم، ثم مات عبد الله دون الثلاثين، وقد كان أشد من الشيخ اجتهادا في العبادة ([27]). وأما بقية أبنائه، فقد توفي أبو

[27] – اللبيدي، **مناقب الجبنياني**، ص 21–22.

الحسن في حياة الشيخ ثم توفي عبد الرحمان. وأما أبو الطاهر فقد كان من أهل القرآن، وأما أبو بكر وأبو عبد الله يحفظان القرآن ويعلمانه ([28]). وهكذا يبدو أبناء الشيخ على قدر كبير من الفضل وهذا الأمر ليس بغريب على أهل الشيخ، فحتى زوجته كانت في الفضل بمكان مكين ([29]).

ويذكر اللبيدي أن للشيخ أختا أيضا كانت من العابدات وكانت سوداء اللون اسمها عائشة، وقد كان أبو إسحاق يعظمها ويحقر نفسه عنها ([30]). نحن إزاء عائلة من العبّاد، وهذا يعود إلى بركة الشيخ التي تلقي بظلالها على أفراد هذه العائلة. فقد حرص المؤلف على إبراز هذا الصنف من الشخصيات قريبا من مستوى الشيخ في الفضل والعبادة. وفي نفس الإطار يبرز النص أصحاب الشيخ الذين يعتبرون بمثابة من يدور في فلكه بقدر ما يبرز هو كشخصية محورية مركزية، فقد أمكن لنا أن نطلع على عدة أسماء لم توجد في بقية المصادر ولها صلة بعالم الأولياء والصالحين وهنا ننتقل إلى الصنف الثاني من الشخصيات القريبة من الشيخ وهي :

- أصدقاء الشيخ :

فضلا عن شيوخه الذين ذكرهم المؤلف في مطلع الكتاب وهم على التوالي:

[28] - اللبيدي، **ن/ م**، ص 22.
[29] - اللبيدي، **ن/ م**، ص 64.
[30] - اللبيدي، **ن/ م**، ص 28.

المعلم بن عاصم بقرية أسباط قرب جبنيانة ([31])، عيسى بن مسكين، ابن اللباد، أبو عبد الله حمود بن سهلون الفقيه الزاهد، محمد بن علي بن عبد الرحيم الزاهد ([32])، وإضافة إلى ذلك كان الشيخ قد انتفع بصحبة أبي يوسف مسلم بن مسرة الحضرمي، الذي لقي بدوره جماعة من أهل مصر وهم، أصحاب الحارث بن مسكين، وبمكة ابن الجارود وابن المنذر والخزاعي والجندي والمغربي والبغوي ([33]). وهذه الشخصيات ورد ذكرها بصفة عرضية وهي ثانوية مقارنة ببقية أصحاب الشيخ الذين ذكروا في السند أو في سياق الخبر، وهم كثير في حدود الإثنين والعشرين صاحبا، ذكرهم اللبيدي ووصفهم بالزهد والعبادة أو بأنهم من المعلمين من «زملاء» الشيخ، وهذه الشخصيات تبدو مكملة لشخصية الولي المحورية كما قيل وهي التي يصفها المؤلف بأنها من الأخيار على نقيض بقية الشخصيات المعادية التي تنتمي إلى صنف الأشرار.

ب- الشخصيات المعادية للولي

وهي شخصيات مناقضة لبقية الشخصيات السابقة الذكر ووجودها ضروري لتكتمل صورة الشيخ المقاوم للبدع، فلا بد من توفر عدو« مصطلح» يمكن أن تتحدد من خلاله مشروعية الشخصية الولائية والتي تستمد وجودها من مقاومة هذا «العدو». من ناحية

[31] – اللبيدي، **مناقب أبي اسحاق الجبنياني**، ص 5.

[32] – اللبيدي، **ن/ م**، ص 8.

[33] – اللبيدي، **ن/ م**، ص9.

أخرى هذه النزعة المتمثلة في مقاومة التشيع والإعتزال تبقى من السمات البارزة في تجربة الولاية الإفريقية ومنها تستمد المناقب شرعية ظهورها ككتابة ذات صلة بالولي وبنشاطه.

هذه الشخصيات ثانوية من حيث العدد هناك من ذكرت بأسمائها وهناك من وردت إشارة ضمنية حولها وهي شخصيات ذات صلة بالسلطة الفاطمية من حكام، على غرار حاكم صفاقس ([34])أو نصير صاحب حبر السلطان ([35]) أو زيان الصقلبي أحد قادة السلطان ([36]). وقد قدمت هذه الشخصيات في إطار التقزيم والتهكم، و تبدو في مواقف تدعو إلى الشفقة أمام بطش الشيخ وهيبته. فقد أمر زيان بالوضوء والصلاة في مسجد الشيخ وما كان من الرجل إلا أن ينفذ ما أمر به الشيخ، ثم ركب دابته بدون عمامة وبدون خف ولا سراويل ([37]). وهذا أحد ممثلي السلطة يأتي قرية الشيخ ويطلب الخمر متحديا الشيخ فلحقت به نقمة هذا الأخير ([38]) وآخر سب الشيخ لأنه لا يقول في آذانه حي على خير العمل : «**يا منافق كم تضل الناس وتصدهم عن دعوة مولانا، ولا تقول حي على خير العمل، فلما قضى الشيخ آذانه قال له أذلك الله يا فاسق عاجلا على يدي من اعتززت به، فبعث إليه بعد ثلاثة أيام في أمر يقيمه عليه ضربه خمسمائة سوط وصلبه حيا فكان**

[34] – اللبيدي، **مناقب الجبنياني**، ص 36.
[35] – اللبيدي، **ن/ م**، ص 40.
[36] – اللبيدي، **ن/ م**، ص 43.
[37] – اللبيدي، **ن/ م**، ص 43.
[38] – اللبيدي، **ن/ م**، ص39.

يقول : دواء مجرب، من أراد أن يضرب خمسمائة سوط فليسب الجبنياني»([39]) .

هكذا كانت الشخصيات المعادية والتي يبدو أن دورها مهم في إبراز مكانة الشيخ فهي مجال لإبراز مواهبه الولائية في استجابة الدعاء وفي القدرة على التحدي لكل رموز السلطة والمذهب. وقد كان الشيخ يدفع عن نفسه الأذى بالحاضر حيث طارت عينا الكتامي الذي سخر منه وشتمه، فقال الشيخ اللهم اجعله آية للعالمين، وصار الرجل أعمى بقية عمره ([40]).

من جهة أخرى وردت إشارات عن جماعة من المعتزلة تنتمي إلى نفس الصنف في نظر المؤلف وفي نظر الشيخ ولكن الموقف منهم كان أقل حدة حيث يرفض الشيخ مقابلتهم على سبيل المثال ولكن يحشرون في خانة أعداء المذهب المالكي، منهم رجل مؤدب يقول بخلق القرآن فتفطن الشيخ لأمره، وانقطع الرجل عن التدريس لما شاع أمره ([41]). وقد وردت إشارات حول جماعة يقولون بخلق القرآن وهم «متواطئون» مع الشيعة في نظر المؤلف ([42]). كما وردت إشارة حول خدام ينتمون إلى الاعتزال ([43]). نلاحظ أن صورة الولي هنا لا تكتمل إلا عبر التحقير من شأن الخصوم الذين يبرزهم النص في إطار

[39] – اللبيدي، **ن/ م**، ص 40.
[40] – اللبيدي، **ن/ م**، ص 37.
[41] – اللبيدي، **ن/ م**، ص 25.
[42] – اللبيدي، **مناقب أبي اسحاق الجبنياني**، ص 38.
[43] – اللبيدي، **ن/ م**، ص 54.

كاريكاتوري ساخر. فكأن كمال شخصية الشيخ لا يقاس إلا عبر التحقير من شأن الخصوم.

وهو أمر مفهوم في مثل هذه الأوضاع التي تقف فيها المناقب موقفا سجاليا وهو أمر مطلوب منها ومنه تستمد مشروعيتها في كتابة سجالية تعبر عن ذلك الجو من الصراع الفكري والمذهبي، وهي تواصل منطقي لبقية المصادر التي عاصرتها أو سبقتها والتي تحاول أن تبرز الولي الإفريقي في المكانة التي تطمح إليها العامة أن تراه فيها، مالكيا سنيا يدافع بكل شراسة عن المذهب «المضطهد» من قبل الخصوم والأعداء. فالولي الصالح يقف هنا موقف «المثقف» المعارض للسلطة معبرا عن طموح الجماعة ورغبتها في تحدي هذه السلطة.

وهذا ما أبرزته المناقب هنا عبر تحقيرها للشخصيات المعادية لشخصية البطل هنا الذي هو أبو إسحاق، فكأننا بالنص المنقبي يتخذ طابعا ملحميا في خضم هذا الصراع بين السنة والشيعة. ولن نطالب النص المنقبي بالحديث عن الحقيقة، فهذا ليس من شأنه بل أنه يهدف هنا إلى إعلاء كلمة البطل وتمجيد صورته على حساب الحقيقة التاريخية([44]). ومن المعلومات التي وفرها لنا النص المنقبي ولها علاقة بمحيط الولي باعتباره شخصية محورية نذكر الأمكنة التي لها صلة بالأحداث والأخبار والمعلومات التي تتعلق من بعيد أو من قريب بالولي .

[44] –Voir : Abdelmajid Zeggaf, « Le récit hagiographique entre l'histoire et la littérature », in , Histoire et linguistique , op,cit , p. 51- 55.

5 – الأمكنة التي ذكرت في النص

يمكن أن نصنفها إلى نوعين، فهناك أمكنة تقع خارج مجال إفريقية ورودها كان في سياق الحديث عن مشيخة الولي الصالح أوفي سياق آخر، فقد ورد ذكر المشرق، بمصره، والحرم، والشام وخراسان، وهنا نشير إلى أن أحد الخراسانيين قد قام بزيارة للشيخ، وهو السياق الذي جاء فيه ذكر هذا الإقليم وقد أشرنا في مناسبات سابقة إلى دور هذا الإقليم في بناء التجارب الولائية عموما وهنا ندرك أهمية هذه الزيارة التي يقوم بها رجل خراساني إلى شيخ جبنيانة وعاد إلى بلده بانطباع طيب حول الجبيناني وغيره من الأولياء الذين عاينهم هنا ([45]).

لقد أشرنا آنفا إلى دور هذه الشهادة الخراسانية في تأهيل الولي الإفريقي إلى درجات راقية من سلم الولاية اعتبار لما يحظى به هذا الإقليم من وزن في تاريخ الظاهرة ككل وليس من الصدف أن يرِد ذكره في النص المنقبي المتعلق بالجبنياني.

كما ورد ذكر الأمكنة التي لها صلة بتحرك الولي أو بتحرك أصحابه أو بقية الشخصيات التي تم التعريج عليها، فنجد على سبيل المثال القيروان وصفاقس، ونجد ذكرا لإقليم الساحل باعتباره مجالا لنشاط الأولياء والعباد، وهو ما عبر عنه أحد أصحاب الشيخ : »**لقد أدركت هذا الساحل وما من قريةإلا بها رجل من أهل العلم ومن**

[45] – يقو أبو حامد الخراساني عن عباد إفريقية :" **رأيت أربعة لم أر مثلهم قط ،رأيت أبا الحسن علي بن محمد بن مسرور الدباغ فلم أر أكثر حياء منه، ورأيت أبا اسحاق السبائي ،فلم أر أعقل منه، ورأيت أبا الحسن الكانشي، فلم أر أظهر حزنا منه، ورأيت أبا اسحاق الجبيناني فلم أر أزهد منه**" اللبيدي، **مناقب الجبنياني**، ص58 .

أهل القرآن أو رجل صالح يزار» ([46]). وبخصوص القيروان فقد أقام بها الشيخ مدة عند ابن اللباد إلي أخذ عنه أبو إسحاق ([47])، وقد ورد ذكر لسوسة التي تواجد بها الشيخ في أول سياحاته بعد أن فر من بيت أبويه وظل يشتغل بعجن الطين بأجرة ([48])، أو أنه كان يقوم بإيصال المجذومين إلى دمنتها([49]).

وبخصوص صفاقس فقد ورد ذكرها في إطار الحديث عن عائلة أبي إسحاق حيث كان أبوه من المقربين للعائلة الأغلبية الحاكمة، وقد كان أبوه ولد سحنون من الرضاعة وهو الذي ولاه قضاء المدينة، وقد بني أبوه المحرس والذي صار يعرف بمحرس علي والمحرس الجديد، وكان والده قد بنى جامعا بصفاقس التي له بها رباع كثيرة ([50]). وقد ورد ذكر قصر زياد في أكثر من سياق وذلك في نطاق الحديث عن أهمية المنطقة التي تعج بالعباد والزهاد الصلحاء، حتى أنهم كانوا يسمون قصر زياد دار مالك لكثرة من به من أهل العلم ([51]).

أما المنستير فقد ذكرت في نطاق الحديث عن الكانشي القاطن بالمنستير وفي إطار الرد على الحديث المأثور عن الأفارقة حول المنستير باب من أبواب الجنة، وقد جاء رد الشيخ كما يلي : **«قل له يا أبا الحسن [يعني الكانشي] قد جاءك الخبر أن ما بين مصراعي**

---

[46] – اللبيدي، **ن/ م**، ص 9.
[47] – اللبيدي، **ن/ م**، ص 8.
[48] – اللبيدي، **ن/ م**، ص 5.
[49] – اللبيدي، **ن/ م**، ص6.
[50] – اللبيدي، **ن/ م**، ص 3.
[51] – اللبيدي، **ن/ م**، ص10.

باب الجنة كما بين المشرق والمغرب، فنحن إن شاء الله، ما بين مصراعي الباب، ليست المنستير وحدها مخصوصة بذلك» ([52]) .

أما قرية جبنيانة فقد وردت في أكثر من مناسبة ونسجل هنا ما ورد عن الشيخ الذي يقدم سبب اختياره الإقامة بها وقد ورد الخبر على لسان ابنه أبي الطاهر: «**قلت لأبي : لم اخترت سكنى جبنيانة دون غيرها؟ فقال لي أردت أن يحمل الله ذكري فيها لأني رأيتها من أقل القرى ذكرا**» ([53]) . فهل يعني أن المجال الذي يتحرك ضمنه الولي يتأهل بدوره إلى أعلى درجات الشهرة، لان الولي هنا يهرب من الشهرة لكنها تلاحقه، حتى من خراسان كما تقدمت الإشارة. أما قرية أسباط فقد ذكرت في سياق الحديث عن ابن عاصم المقيم بها والذي كان من أول معلمي الشيخ ([54]).

كانت هذه تقريبا أهم المواضع التي ورد ذكرها في النص المنقبي، وقد تبين لنا أن النص يحمل بين طياته معلومات هامة حول المجال الذي كان يتحرك فيه الولي لأن هذا المجال يستمد أهميته من تواجد الولي به، وقد أشرنا إلى هذه النقطة خلال حديثنا عن المجال الأوليائي في سياق سابق.

كما أننا وجدنا النص لا يتضمن أخبارا عن حوادث، ما عدا ما أشرنا إليه من خبر ثورة أبي يزيد الخارجي، غير أنه ثري بمعلومات عن الجو

[52] – اللبيدي، **مناقب أبي اسحاق الجبنياني**، ص 35.
[53] – اللبيدي، **ن/ م**، ص 26.
[54] – اللبيدي، **ن/ م**، ص 5.

السائد بالمحيط القريب من الولي وفي زمن الولي أساسا القرن الرابع للهجرة، وهو ما يتزامن مع العهد الفاطمي. وبعد أن قمنا بتقديم ما تضمنه النص من معطيات حول الشخصيات وحول الأمكنة والمواضع ومن خلال ذلك فتحنا نافذة على ذلك الجو المفعم بالصراع بين السنة وبين الشيعة من خلال الشخصيات التي ورد ذكرها في النص. بقي أن نتساءل عن الصورة التي رسخها النص المنقبي عن الشخصية المحورية وهي شخصية الولي، وقد سبق أن قمنا بتقديم هذه الشخصية لذلك كان حرصنا على استغلال النص من زاوية أخرى.

نشير إلى أننا سنحاول أن نرسم ملامح شخصية الولي من خلال النص المنقبي، وهو أمر تركناه في آخر المطاف حتى نتمكن من الإلمام ببقية المعطيات التي تفيدنا في الخروج بصورة مكتملة المعالم عن الرجل، برغم أننا قمنا بتقديمه آنفا لكننا في هذه المرة سنحاول أن نتعرف إلى هذه الشخصية كما سعت المناقب إلى إبرازها.

6 – شخصية أبي اسحاق كما صورها النص المنقبي

من المهم جدا تناول موضوع شخصية الرجل بأكثر عمق مما قمنا به آنفا لأننا هنا نحاول القيام بمقاربة للنص المنقبي الذي يشكل الرجل عموده الفقري. يبدو أبو اسحاق شخصا عاديا في أغلب الحالات لا يميزه إلا الزهد المبالغ فيه، ولكن لا تتمتع هذه الشخصية بخصائص خارقية على غرار بقية أبطال المناقب الذين نجدهم يطيرون في الهواء،ويُنزلون الأمطار ويقومون بشتى أنواع الخوارق.

لا نسجل للرجل مثل هذه النزعة إلا في حالات نادرة: نراه يشفي المريض بواسطة الرقيا، ونراه يشفي الملدوغة بنفس الطريقة، ونسجل له لقاءً بالخضر مثلما أشرنا.

مقابل ذلك تبدو هذه الشخصية التي تختلف عن الفقهاء والعلماء ولكنها تفوقهم وزنا »**وكان أبو إسحاق رحمه الله، يشرح القرآن والسنة، كأنهما بين عينيه. وكان العلماء والفصحاء من هيبته كأنهم الغلمان بين يدي المعلم، هيبة وإجلالا له، و لما عظم الله في قلبه عظمه الله في أعين العباد** » ([55]) .

حرص المؤلف على وضع الشيخ المؤدب في منزلة تفوق منزلة العلماء وهذا أمر مفهوم من زاوية مبدأ التعويض الذي يفسر لنا الصورة التي يراد له أن يبرز بها أمام الفقيه والعالم، وهي نزعة سوف تتكرر مع بقية الأولياء وقد تعرضنا إلى ذلك خلال حديثنا عن علاقة الولي بالفقيه. فالولي هنا يستمد علمه من قربه من الله بينما يكون الفقيه صاحب علم أرضي، في حين يكون علم الولي علما سماويا، وهو ما نلمسه من الجملة التي وردت أعلاه. من جهة أخرى يبدو الولي الصالح، أبو إسحاق، في المناقب مؤدبا مالكيا حريصا على الدفاع عن المذهب حتى في مهنته إذا انه يتعمد أن يبقى تلامذة أبناء الكتاميين جاهلي الكتابة([56]).

[55] – اللبيدي، **مناقب الجبنياني**، ص 37.

[56] – اللبيدي، **ن/ م**، ص 26.

وهو أمر يندرج ضمن منهجه الذي اختاره للمقاومة حيث لم ينخرط أبو إسحاق في ثورة مسلحة، أو تورط في أعمال مناهضة للشيعة. يبدو الرجل هنا معتدلا برغم ما ورد من مبالغة بشأن مقاومته للمذهب الشيعي عبر تحديه لرموز السلطة، مثلما ذكرنا أثناء تعرضنا لطبيعة الشخصيات المعادية ودورها في النص المنقبي الذي نتناوله بالدرس. هنا نشير إلى أن أبا إسحاق الذي يمثل نموذج الولي الصالح الإفريقي للفترة الثالثة يتميز بعدم انخراطه في ثورة أبي يزيد مثلا على غرار ما فعل جماعة القيروان، ربيع القطان، والممسي، وغيرهم من الذين رفعوا السلاح في وجه النظام الفاطمي وقتلوا في المعركة، وكان مقتلهم سببا في تخليد ذكراهم وجعلهم موضوع مناقب من طرف الأجدابي ([57]). لم ينخرط أبو إسحاق في عمل معادي مؤطر كما فعل محرز بن خلف الذي كان له ضلوع كبير في مذابح ضد الشيعة ([58]).

من جهة أخرى لا نعثر على أعمال ذات صلة بالكرامات مثل التي لها صلة بالماء وهي عديدة عند غيره من معاصريه وحتى بين الذين سبقوه. بماذا نفسر هذه الصورة المعتدلة التي يبرز بها أبو إسحاق ؟ فهل أن للمستوى العلمي للمؤلف دور في أسلوب الكتابة الذي جاء مقبولا وخاليا من الأخطاء وذلك مقارنة بأسلوب المناقب التي سوف تظهر لاحقا والتي تتعلق بأولياء تونس على سبيل المثال ([59]).

[57] – ينظر الإحالة رقم 125.

[58] – أبو طاهر الفارسي، **مناقب محرز بن خلف**، ص 124.

[59] – الهواري، **مناقب أولياء تونس، مخ، رقم** 18555.

هذا الاعتدال في صورة الولي هل يفسر بأن نزعة الخوارقية لم تتجذر بعد في الذهنية الإفريقية وحتى الإسلامية عموما؟ لأن الفترة التي عاشها الشيخ سبقت سقوط القيروان ولا تزال الثقافة الإفريقية في فترة نمو قبل أن تصل مرحلة النضج في العهد الزيري كما هو معروف، أم أن الأمر يعود إلى المؤلف الذي يتمتع بقدر معين من الثقافة والمعرفة تجعلانه ملازما «للواقعية» ولو بصفة نسبية، فباستثناء محاولة إعلاء منزلة المؤدب المدافع عن السنة ضد المعتزلة والشيعة لم ترد أمور خوارقية تذكر([60]) .

7- القيمة الوثائقية للنص المنقبي بين الإمكانيات والمحدودية

أ- نافذة على عالم الذهنية الإفريقية في القرن الرابع

لقد ذكرنا كيف أن نص الحال لا يتضمن أخبارا عن أحداث تاريخية هامة برغم أنه أشار عرضا إلى ذلك الجو من الصراع السائد بين المالكية من جهة وبين الشيعة من جهة أخرى. وهذا أمر منطقي نظر للظرفية التي عاش فيها الشيخ موضوع المناقب، ونظرا أيضا للظرفية التي عاشها المؤلف للنص المنقبي الذي ينتمي إلى مدرسة القيروان الفقهية المالكية. وهذا النفس المالكي هو الذي نسجل حضوره المستمر في النص المنقبي. لقد عاش أبو إسحاق مابين العهدين الأغلبي وأوائل العهد الزيري([61])

[60] – نشير هنا إلى أن النزعة الخوارقية في المناقب تبرز مع مناقب الدهماني الذي نراه يطير في الهواء متحديا قوانين الجاذبية، ينظر، الدباغ، **الأسرار الجلية في المناقب الدهمانية**، تحقيق عبد الكريم شبلي، ص282. ومع أبي علي النفطي الذي يذكر عنه أن أحدهم صحبه ثلاثين يوما فرأى له ثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسة وستين كرامة منها ألف كرامة يظهره للناس، ينظرالهواري، **مناقب أبي علي النفطي، ضمن مجموعة مناقب أولياء تونس، مخ/م**، ورقة 202، قفا.

[61] – من المعلوم أن البيعة قد أخذت لبلكين بن زيري في أكتوبر 972 م ينظر:
H.R.Idris ; La Berbérie orientale sous les Zirides, opcit, T1, p. 41- 42.

[269هـ/ 369هـ 882م /979م]. ونظر لكون الولي يمثل الشخصية المحورية في النص فإن المؤلف حرص على إعطائه القدر المطلوب لوضعه في مكان القدوة الذي يعتبر مطلبا جماعيا عبر عنه المؤلف مثلما سبقت الإشارة.

يندرج وضعه الولي في نطاق احترام الجماعة للسلف الصالح الذي يعتبر أبو إسحاق عنصرا مهما في نطاقه، وهو ما نجده في المناقب حيث عبر الفقيه ابن أبي زيد القيرواني الذي شبهه بأويس القرني، وبأنه يضاهي عُبّاد بني إسرائيل ([62]). إنها شهادة العالم الفقيه حول مكانة الولي الصالح، لقد مثل أبو إسحاق تواصلا «للمثقف» المالكي المقاوم للسلطة التي يمثلها المذهب الشيعي، وهو بذلك يعبر عن إرادة جماعية. وليس صدفة أن تنشأ النصوص المنقبية التأسيسية حول شخصيات تستمد مشروعية وجودها من الانتماء إلى ذلك التيار المقاوم للتشيع. وهي سمة تميز الولي الإفريقي على امتداد الفترات التاريخية المدروسة كما لا حظنا خلال هذه الدراسة.

في هذا الإطار يتنزل النص المنقبي الذي يمثل تواصلا للنصوص الأخرى ذات الصلة بالتراجم والطبقات وهي كتابات ساهمت في التعريف بأعلام المالكية، وهي أيضا ضرب من المناقب لكنها ليست نصوصا مستقلة بذاتها وخاصة بشخص واحد. لقد شق اللبيدي طريقا جديدة في الكتابة، تجمع بين خصائص التراجم والسير من

[62] – اللبيدي، **مناقب الجبنياني** ، ص 16.

جهة، على مستوى طريقة الكتابة وجمع الخبر، وتجمع بين نوعية جديدة تنسجم مع عقلية العامة التي تحبذ أن يكون الولي بمثابة البطل الذي لا يقهر. إن الولي في النص تواصل للبطل الشعبي الذي نجده في السير الشعبية، وهو تواصل للتجارب النبوية التي تعج بها قصص الأنبياء والإسرائيليات. إنه يختزل كل هذه النماذج تلك التي لها صلة بالنفس الملحمي في القصص الشعبي ونماذج الأنبياء في القصص النبوي. وقد جاءت صورة الولي كما تريدها الذاكرة الجماعية، فالكتابة المنقبية تكون بذلك تعبيرا عن وعي جمعي على حد عبارة هواري التواتي([63]).

لقد ساهم النص المنقبي في إلقاء الأضواء على الذهنية الإفريقية للقرنين الرابع والخامس، وهي الظرفية التي شهدت أوج الصراع بين المالكية والشيعة، وهي الظرفية التي شهدت ميلاد هذا الجنس من الكتابة الذي جاء متفردا بخصوصيته الإفريقية. إن نص اللبيدي يؤسس لنمط جديد سوف يكون الطابع المميز لأدب الولاية الإفريقية، كما يمكن أن نعتبره قد غطى النقص الذي نسجله على مستوى الأدبيات ذات الصلة بالولاية ذات الطابع النظري التي ميزت الولاية المشرقية.

لقد سبق اللبيدي، هذا إذا اعتبرنا أن نصه أقدم نص، وهو أمر واقع في غياب نصوص أخرى ذكرت سابقا ([64]) بقية المؤلفين المغاربة([65])

[63] - Hourai Touati ; «Approche sémiologique et historique d'un document hagiographique algérien», *Annales ESC, septembre* –octobre 1989 ; n°5, p. 1208.

[64] – نشير هنا إلى نصوص الأجدابي التي ألفها حول ربيع القطان والسبائي والمسي، وهم من أعيان المدرسة القيروانية.

والأفارقة وحتى المشارقة([66]) حيث لم تظهر مثل هذه النصوص إلا في العصور الحديثة.

لقد قامت النصوص المنقبية وعلى رأسها نص الليبدي بدور كبير في التعريف بالولي الإفريقي وبرد الاعتبار له أمام « زميله» المشرقي الذي خصته كتب التصوف بحيز كبير وهنا يبرز دور هذه النصوص على امتداد الفترة المدروسة، ويفهم رد الاعتبار هذا من الحرص على ذكر شهادة المشارقة، الخراساني في نص الحال، وفي مماهاة الولي مع السلف الصالح ومع مؤسسي الظاهرة من المشارقة، أُويس القرني في هذه الحال، وكذلك بإحالة الولي إلى تجارب نبوية سامية تخص بني إسرائيل، حيث يجوز لأهل إفريقية أن يفاخروا هؤلاء بأبي اسحاق إذا اقتضى الأمر([67]).

[65] – يعتبر كتاب التادلي، **التشوف لرجال التصوف** أقدم تأليف يعرف بأعلام الظاهرة وقد كتب في القرن الثالث عشر ميلادي 617هـ/ 1221 م، ينظر: الكتاب المذكور نشر أدولف فور الرباط 1958، و H.Farhat et H.Triki

Hagiographie et religion au Maroc médièval ,*H.T* ,op ,cit, p.25.

[66] – هناك تشابه بين النصوص المنقبية الإفريقية والمشرقية التي تعود إلى العصور الحديثة من أمثال نصوص الشعراني، **الطبقات في الطبقات الكبرى**، 2 ج ، بيروت، د/ت، والمناوي، **الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، مخ / رقم** 48555، وصلت هذه الكتابة إلى مرحلة من "النضج" مع النبهاني الذي ألف كتاب جامع كرامات الأولياء في القرن التاسع عشر، ينظر :

M.K. HREMANSEN, “Miracles langage power in a century 19th islamic hagiographic text”, *ARABICA*, t 27, nov 1991.

[67] – الليبدي، **مناقب أبي اسحاق الجبنياني**، ص 16.

ب – المتن المنقبي وحدود الإستغلال خارج موضوع الذهنيات

من خلال ما تقدم يبدو لنا النص المنقبي بالرغم ما يوفره من إمكانات استغلال من قبل المؤرخين غير أن هذا الاستغلال يظل مقيدا بشروط وأهداف موضوع الكتابة التاريخية.

ومفاد ذلك ان المعلومات الواردة بالرغم من أهميتها قد لا تفي بالحاجة إذا لم تقارن بما يرد من معطيات في مصادر أخرى. والمعلومات التي تخص المحيط الذي يعيش فيه الولي جاءت بمحض الصدفة وبمقتضى السياق العام الذي تفرضه هذه الكتابة لتموضع الشخصية الأساسية : شخصية الولي في الإطار الذي تتطلبه الشروط المطلوبة لرسم معالم الرجل([68]).

فلا بد من توفر إطار زماني ومكاني وشخصيات وأحداث يمثل الولي فيها الشخصية المركزية لكي تكتمل عناصر البنية القصصية التي يعتبر الولي سبب وجودها. فلا عجب حينئذ أن لا يجود هذا النص بأخبار تخرج عن نطاق عالم الذهنيات الإفريقي في فترة محددة هي فترة القرن الرابع. أما إذا تعلق الأمر بأغراض أخرى من الكتابة التاريخية فيمكن الجزم بأن هذ النص يبقى غير ذي أولوية مقارنة بنصوص أخرى.لكن قد يتوفر النص على معلومة هامشية غير انها مفيدة في حال من الأحوال، علما وأن مصادر التاريخ الوسيط الإفريقي عموما تعد نادرة وشحيحة إن وجدت مقارنة بمجالات أخرى مثل المشرق أو العالم المسيحي في نفس الفترة.

[68] - Voir H.Touati, *I.B.ID* ; p. 1210-1212 .

وخارجا عن نطاق الشخصية التي وضع من أجلها النص لا بد من أن نعترف بمحدودية استغلال المادة التاريخية الواردة في المنقبة، غير انه قد يمكن أن تعاضد بقية النصوص التي تعود إلى نفس الفترة من مواد إخبارية أو نصوص الطبقات والتراجم وهي النوع الأكثر تواترا فيما يتعلق بتاريخ إفريقية الوسيط لاسيما في العصر الأول منه.لا سيّما وأن نص اللبيدي لا ينتمي إلى تلك النصوص المتأخرة الموغلة في العجائبي والخوارقي، وهي النصوص التي ميزت الفترات اللاحقة: العصر الوسيط الثاني والعصر الحديث.

وإن مضمون المنقبة لم ينفصل كثيرا عن بقية كتب الطبقات والتراجم التي أنتجتها مدرسة القيروان. ويمكن الاستعانة ببعض مواد هذا النص في كتابة تاريخ التربية والتعليم([69]) على سبيل المثال باعتبار أبي إسحاق مؤدبا على غرار محرز بن خلف الذي حظي بدوره بمناقب تعد تواصلا لهذا النوع من الكتابة بعد نص اللبيدي. كما يمكن أن يفيد هذا النص ولو قليلا فيما يتعلق بكتابة تاريخ الفقر، حيث نجد أبا إسحاق يختار الفقر الطوعي([70]) ليحيلنا النص عندئذ إلى عالم، وإن كان يقترن بالولاية والتصوف، فهو يتقاطع مع الوضع الاجتماعي والسياسي لتلك الفترة.

[69] – نشير إلى أسبقية المدرسة القيروانية في التآليف ذات الصلة بالتربية والتعليم، من محمد بن سحنون صاحب كتاب آداب المعلمي وكذلك القابسي صاحب كتاب الرسالة المفصلة وهما تأليفان يتناولان مسائل ذات صلة بالتربية والتعليم.

[70] – يقول أبو اسحاق مخاطبا احدهم: **"أرني منزلة دون هذه أنزا إليها فما وجدت"** اللبيدي، **مناقب أبي اسحاق الجبنياني**، ص 21.

ومن جهة أخرى يوفر النص شذرات حول مجال خارج المجال الساحلي القيرواني قد لا يتوفر في المصادر الأخرى وهو المجال الذي يحيط بصفاقس، حيث يتحرك ابو إسحاق. ذلك انه اختار اللجوء إلى مكان غير معلوم([71]) فصار به علما، واستمد المكان شهرته من أبي اسحاق.

الخاتمة

كانت هذه محاولة بسيطة لقراءة نص منقبي اخترناه لكونه نصا تأسيسيا من جهة ونظرا لعلاقته بأحد أبرز رجالات الولاية الأفارقة في القرن الرابع للهجرة .

ونشير في الختام إلى أن الكتابة المنقبية تميزت باختزالها لأنواع متعددة من الكتابات عبر أسلوبها وعبر مضامينها ومن خلال إعلاء صورة البطل موضوع المناقب. لقد شكل النص الذي ألفه اللبيدي سابقة مهمة في أدب الولاية وكان إبداعا إفريقيا يجدر به أن يعوض النقص الذي نلمسه على مستوى مؤلفات ذات صلة بالولاية. لقد كان للمالكية أثر واضح في تحديد ملامح الشخصية الولائية، وهي التي حددت أيضا إلى حد معين بروز هذا الصنف من الكتابة. وهكذا ساهم النص المنقبي في رسم معالم صورة الولي وصورة عن محيطه وأخبر عن طبيعة الذهنية الإفريقية التي تأصلت في النزعة المالكية التي بدورها كانت دافعا من دوافع ظهور هذا الجنس من الكتابة .

[71] – اللبيدي ، **مناقب أبي اسحاق الجبنياني،** ص 26، أجاب حين سئل عن سبب اختياره لقرية جبنيانة: "أردت أن يحمل الله ذكري فيها، لأنها من أقل القرى ذكرا.